

القومية - الأمة
دراسة تاريخية ونظرية حول المفهوم والحركية
والآفاق

من دراسة :
أ/ أحمد شرف

مقدمة عامة :

- لا يملك اي باحث جاد ، إلا أن يجيى الجهد العلمي الجاد والموسوعي
للدكتور رفعت الأسد في كتابه " نحو تجديد الفكر القومي " إلا أن تناوله
لمفهوم القومية يثير الكثير من القضايا الخلافية . والخلافات لا تدور حول
الموضوعات المثارة ، ولا حول النتائج التي توصل إليها، بقدر ما تدور
الخلافات حول قضايا منهجية وبنائية في موضوع القومية، والأمة ، والدول -
الأمة العربية وحتى لا نبتسر الأمور سوف نعرض دراستنا في عدة مباحث أهمها
: أن القومية ومن فوقها الأمة درجة ، ثم أخرى على سلم تطور الرابطة
الاجتماعية في علم تطور المجتمعات ، ومن ثم فهي ليست نزعة ، ولكنها
ظاهرة موضوعية تعلوها درجات ، وتقع تحتها درجات تطويرية أخرى، وأن
القومية العربية ، والدولة - الأمة العربية شهدت أول وجود تاريخي لهذه
الرابطة في أبعادها القانونية والموضوعية في التاريخ العالمي القديم، ولكن حدث
انقطاع للتطور التاريخي العالمي ، أهدر هذا التواصل ، وذلك إبان وبعد
الإمبراطورية المصرية (افتراضاً) أي الدولة المصرية - الأمة الكبرى على
عهد الدولة الفرعونية الحديثة ، ثم نبحت في مبحث ثالث القومية العربية

الحديثة فكريا ونضاليا ، ثم نبحت إمكانية الدول - الأمة العربية والمعوقات التي تقابلها ، وآفاق ذلك .

العربية ، والأمة العربية المعاصرة وآفاق تطورها :

دون الاستطرداد في الوقائع التاريخية ، نستطيع أن نقول واقعا ، إن حركة التحرر العربية عمدت نشوء الدولة الوطنية في كل الأقطار العربية ، وتمكنت قيادة عبد الناصر من أن تدفع بالقومية العربية ، دفعات كبيرة وقوية في اتجاهين :

أ - القضاء النهائي على فكرة الخلافة الإسلامية ، واستتباب الرابطة المجتمعية الوطنية ، فمنذ بناء نموذج مصر المستقلة ، التي تبلور استقلالها بعد حرب السويس ، أي العدوان الثلاثي سنة 1956 ، أصبح نموذج الدولة الوطنية هو النموذج السائد عربيا ، سواء كانت الدولة إمارة ، أو مملكة ، أو جمهورية ، كما لعبت مصر الثورة دورا محوريا في دعم حركات التحرر العربية في المغرب العربي وفي اليمن وفي الخليج ... إلخ ، ولعبت دورا تحديشا ما كان يمكن أن ينتقل اليمن يدونه إلى العصر الحديث .

واستطاعت مصر عبد الناصر أن تبرز الشخصية العربية المستقلة كتيار جارف داخل الوطن العربي .

ب - تحقيق الوحدة الاندماجية بين مصر وسوريا كاختبار فعلي لقوة الرابطة القومية ، ورابطة الأمة العربية ، وصلاحيه هذه الرابطة للاختبار الموضوعي ، وقد يقال الكثير في فشل هذه التجربة ، إلا أنها تثبت بوضوح ، موضوعية رابطة القومية العربية ، ورابطة الأمة العربية.

- بعد مجتمع ونظام عبد الناصر قام اتحاد الإمارات الخليجية العربية تحت اسم دولة الإمارات العربية المتحدة ، ومما لا شك فيه أن هذه تجربة وحدوية

مهمة (2 ديسمبر سنة 1971) تقاوم التفتيت وتخلق طابعاً وطنياً لمناطق قبلية وعشائرية ، وهذا أمر جد ناجح ، كذلك قامت تجربة وحدة اليمن ، أو اليمن الموحد ، وهي أيضا تجربة وطنية مهمة .

- ولكن تحت وهم أن الاستعمار انتهى ، وتحت جهد تحرري نضالي عالمي سابق ، تم قانونا تصفية الاستعمار في الأمم المتحدة حتى سنة 1973 ، وتطور النظام الدولي للتوازن عند ثلاث كتل أساسية : الكتلة الرأسمالية الإمبريالية الأطلسية ومعها اليابان ، ثم الكتلة السوفيتية والاشتراكية الأوروبية الشرقية ، والمحيط متنوع الأطياف لعدم الانحياز ، في هذه الآونة سادت سياسة الانفراج الدولي بين الكتلتين العسكريتين، وبدأت عملية تفويض حركة التحرر الوطنية الدولية ، ثم تم تفويض الكتلة السوفيتية والأوروبية الشرقية ذاتها ، ومنذ إقرار مبدأ كارتر بشأن الخليج بعد قيام الثورة الإيرانية الإسلامية ، وتكوين قوات التدخل أو الانتشار السريع الأمريكية ، وتحويلها إلى قوات مركزية لغرب آسيا والشرق الأوسط ، وتغذية الصراعات الثانوية بين الأمة الإيرانية والعراق ومن ورائه الأمة العربية ، والعمل الدءوب على نقلها إلى دائرة الصراعات العدائية ، والتناقضات الأساسية كذبا وبهتاناً ، تزايدت عوامل التبعية في معظم البلدان العربية سواء على المستوي البياني بتحويل الأشكال البدائية للاستقلال الاقتصادي إلى نمط للاقتصاديات المندمجة مع الاقتصاد الإمبريالي ، أو سواء على المستوي الفكري والسياسي تحت شعارات سياسات الانفتاح والخصخصة والسلام مع الكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين .

لقد ساعدت كل هذه العوامل والسياسات ، مع الأخطاء الفادحة لحكومات التيار القومي ، وعدم قدرتها على فرز التناقضات والسياسات العدائية عن الثانوية والجانبية ، وأخطاء التيارات السياسية والنخب السياسية

العربية . بأنها تحولت كلها لتبني السياسات الليبرالية الجديدة ، وضاعت فروق المدارس السياسية التي تكونت في مجرى عمليات التحرر الوطني ، والحركات الوطنية حتى كادت كلها أن تكون حركة ليبرالية ، على نمط الليبرالية الجديدة المتوحشة ، تسعد بالتمويل الأجنبي الاستعماري الصهيوني، وترتمي في أحضان المؤسسات الاستعمارية الدولية تحت مسميات منمقة عن حقوق الإنسان ، والمجتمع المدني ... إلخ من الألغام الفكرية والحركية السائدة.

- ليس هناك من قضية سياسية تتقدم على قضية مقاومة الاستعمار والصهيونية ، وتصفية وجودهما سواء بالاحتلال ، أو القواعد العسكرية ، أو قواعدها فيما يسمى المجتمع المدني المستعار والمزيف . ويجب فضح فكر وأشكال الحرية والديموقراطية الاستعمارية وفضح السلام الإمبريالي ، ورفض الزيف عن وجود عدالة استعمارية ، أو مساعدات إمبريالية عسكرية أو ثقافية . إن عودة الاستعمار إلى شكله القديم بعد رفع شعار العولمة ، يعيد صوراً للحياة تزيد في قبحها وعنصريتها وتدميرها عما أتى به الاستعمار القديم ، لينظر أي إنسان سوي ويتابع كم ألف طن من الأسلحة الملوثة نووياً رُميت على العراق ، ولبنان في الأيام الأخيرة .

- لقد أصبح التيار الاستعماري العدواني العنصري هو التيار السائد والمسيطر في الفكر والثقافة الغربية : الأمريكية - الأوروبية - اليابانية، وأصبحت التيارات المقاومة هامشية وجزئية وما يجري عندنا على مستوى النخب ، يجري عندهم بمعدلات أعلى وأكثر خراباً ، ويمكن القول إن العالم ينقسم طويلاً الآن إلى شعوب ونخب .

إن التناقضات التي بينها صارت عدائية في الغالب الأعم ، في مثل هذا الجو لا وجود لأي تيار سياسي فاعل إلا بمواجهة الاستعمار والصهيونية كعداء

جذري وأصيل : سواء التيارات الليبرالية ، أو الشيوعية ، أو القومية أو الإسلامية . إننا لسنا بصدد تناقضات أيديولوجية بين المدارس السياسية لدينا ، ولكن أمام تناقض رئيسي واحد يغلغ كل المدارس الفكرية والسياسية الموجودة في بلادنا الآن ، وكل التيارات السياسية والكفاحية إلى خنادق متعادين : خندق مع الاستعمار والصهيونية ، وخندق مع الوطن والقومية والأمة العربية، والعدل والسلام والتقدم والتحرر المرتبط بهم .

- إن الفكر القومي لا يحتاج للتجديد بقدر ما يحتاج للنظرة العلمية والتمحيصية ، يحتاج أن يحتكم إلى العلوم المثبتة ، والقوانين الاجتماعية والسياسية والتاريخية الحقة ، يحتاج أن يعتبر أن الظواهر السياسية ترتبط بعلاقات وشروط حتى تعطي مؤشرات مقننة ، فإذا تغيرت هذه الشروط ، تغيرت النتائج ، ولناخذ من موضوع دراستنا مثلا على ذلك ، كان من الشروط المفترض أن تعمل معيار الأمة ، تأكيد وحدة الأوطان العربية داخليا أولا ، ثم وحدتها الكلية بعد ذلك ، فلقد كانت الأمة العراقية تحتاج الاحتكام لمعيار أن الأمة هي اتحاد شعوب : سواء عرب أو أكراد ، أو تركمان ، وكذلك سوريا ومعظم الاقطار العربية ... إلخ .

وبدلا من ذلك أعمل الاستعمار والصهيونية آلياته وسياسته وبدأب يمتد لسنوات خلت لا تقل عن ثلاثة عقود لجأ إلى إثارة الفتن ، والنعرات الطائفية ، ووجدنا مراكز الأبحاث الممولة صهيونيا واستعماريًا تتكلم عن حقوق الأقليات كاسم حركي ، لإثارة المشاكل الطائفية ، وكأن الأكراد ذاتها قد نالت حقوقها ، لقد غير أحد المراكز الشهيرة بتصديده لهذا التخريب اسم برنامجه المفضوح ، وحوّله الى اسم تراثي ، هو البحث في الملل والنحل ، وكأنهم يريدوننا أن نحبي تراث ما قبل الحضارة ، أو تراث عهودها الأولى .

- وفكرة الأمة الفرعية لا تسد الباب أمام الأمة العامة والكلية أي الأمة العربية ، هذا قانون التاريخ القديم ، كما رصدته هذه الدراسة ، وهو قانون يكتسب قوة دفع أكبر في عصر الهيمنة الإمبريالية بزعامة الولايات المتحدة الآن ، فمما لا شك فيه أن هناك عناصر موضوعية تكونت في الواقع الدولي والكوني ، تدفع للتوحد والعدالة العالمية ، كالثورة العلمية التكنولوجية الحديثة ، وثورة الأتمتة ، وثورة الاتصالات، وثورة البيولوجيا والهندسة الوراثية ، كل هذه الثورات العلمية أنتجت مقدمات محددة لعملية إنتاج الوفرة ، وهيأت لقيام المجتمع العالمي الواحد ، ولكن الإمبريالية والصهيونية والعنصرية عموماً تعوق ذلك ، بل تعمل على تفكيك بنية الدولة الوطنية ، وشكل الإنتاج المجمع ، وتفتيت قوى الإنتاج ليسهل لحكومة المجمع الصناعي العسكري التكنولوجي أن تواصل هيمنتها على العالم ، باتباع استراتيجية الهيمنة المباشرة ، والاحتلال العسكري ، والصدمة والترويع ، أو قوى التجمع المدني التكنولوجي الإمبريالي باستراتيجيات الاحتواء المزدوج ، والاختراق الوطني والقومي .

- على الجميع أن يتذكر أن الكيانات الكبرى هي الوحيدة القادرة على هزيمة الإمبريالية والصهيونية ، والهيمنة والعولمة .. وما إلى ذلك، فالدولة الوطنية وحدها غير قادرة على ذلك ، فلا بد من قيام دولة الوحدة بين أطراف القومية العربية واتحاد الشعوب التي تمتلك مقومات الأمة ، بل لا بد من توسيع أطر التحالف الإقليمي للأمم المقاومة للاستعمار والصهيونية ، والتنسيق بينهما لقيام وحدة متطورة لتكوين اتحادات إقليمية بل وقارية كبرى ، وسوف نلاحظ أن الشرط الرئيسي والأساسي لكل دوائر التوحيد هو مقاومة الاستعمار والإمبريالية والصهيونية ، والمنظمات والنظم المرتبطة بها ،

حتى ولو تحفت تحت أسماء رنانة وهويمات كبرى ، مشتقة من الثقافات الاستعمارية وتيارها الغالب في الغرب حالياً .

- بقت لي نقطة أخيرة أود الإشارة لأهميتها وهي : أن حماية الدولة الوطنية العربية الآن ، والأقل تبعية ، أو الأكثر استقلالية وتحراً من السياسات الاستعمارية ، وسياسات العولمة والهيمنة ، يتقدم عما عداه، آن للنخب العربية أن تخرج من هوس الليبرالية الجديدة ، وتعلم أن كل المفاهيم السياسية ، وكل السياسات المحلية والدولية تصنّف في خندقين حتى للتيار السياسي الواحد ، والسياسة الداخلية الواحدة ، والسياسة الخارجية الواحدة، هما : خندق الأوطان والشعوب ، والخندق الآخر خندق الاستعمار والنخب المرتبطة به .